آلية "الاستبدال":
تحول المقدس الخارق من المعجزة النبوية إلى الكرامة الصوفية

نبيل الشباني
ذ. عبد العزيز اعمار
كلية الآداب واللغات والفنون ، مختبر اللغة والمجتمع
جامعة ابن طفيل، القنيطرة
المغرب

الملخص:

ينطلق هذا المقال من فكرة أن بناء الكرامة الصوفية يتأسس على بنية المعجزة سرديا ورمزيا عبر آلية الاستبدال التي تنبني على عناصر ثابتة وأخرى متغيرة (محمد أبو الفضل بدران، أدبيات الكرامة الصوفية، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2013)، فهي تعمل على نقل الفعل الخارق من سياق النبوة والوحي إلى سياق الولاية والتجربة الروحية، واستبدال النبي بالولي، وشخصيات المعجزة بشخصيات الكرامة، دون المس بوظائفها ودلالتها العميقة. وهكذا فالاستبدال لا يلغي المعجزة، بل يعيد توظيفها في أفق صوفي. وسوف نتناول في دراستنا آلية الاستبدال في الكرامة الصوفية، انطلاقا من منظور فلاديمير بروب Vladimir Propp لمفهوم ووظيفة النسق (فلاديمير بروب، مورفولوجية الخرافة، ت. إبراهيم الخطيب، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ط.1، 1986)، حيث يمس الاستبدال الشخصيات دون المساس بالوظائف وترتيبها، مع إمكانية تغييب بعضها.

Abstract:

This article is grounded in the premise that the narrative and symbolic construction of the Sufi karama (hagiographic marvel) is fundamentally built upon the structure of the prophetic miracle (mu'jiza) through a sustained mechanism of substitution. As noted in Muḥammad Abu al-Faḍl Badran, Adabiyyat al-Karama al-Ṣufiyya [The Literature of the Sufi Karama], this mechanism operates through a set of constant and variable narrative elements. Its primary operation involves transposing an act of supernatural power from the domain of prophecy and revelation into the realm of sainthood (wilaya) and personal spiritual experience. Consequently, it substitutes the prophet with the saint (wali) and the characters specific to a miracle with those of a karama, all while preserving the essential functions and deeper symbolic signification of the original narrative structure. Thus, substitution does not erase the miracle but strategically re-deploys it within a distinctively Sufi hermeneutical framework. In this study, we analyze the mechanism of substitution within the Sufi karma through the lens of Vladimir Propp's morphological theory, specifically his concept of the narrative schema and the stability of functions (Vladimir Propp, Morphology of the Folktale, trans. Ibrahim Al-Khaṭb, Casablanca, al-Najaḥ al-Jadida Press, 1st ed, 1986). From this perspective In this view, substitution affects the characters without altering their functions or sequence, although some may be omitted.

يعد الخارق أحد الظواهر الكونية المركزية التي تحضر في الوعي الديني والرمزي الإنساني، وتتجاوز الانتماء الثقافي والديني، فهو ليس مخصوصا بثقافة دون أخرى، ولا حكرا على شرائع دون أخرى، فقد كان الخارق أساسا لبناء تمثلات الإنسان للعالم، والبدايات الأولى للتفكير في تفسير ما يخرج عن المألوف، والماورائيات التي تخالف العقل التجريبي، وتتعالى عن قوانين الفهم اليومي؛ وقد تمظهر الخارق في ميثولوجيا الحضارات القديمة والأساطير التي ارتبطت بالطقوس والمعتقدات الدينية، لا بوصفه مجرد تكسير لقوانين الواقع، بل بوصفه تعبيرا رمزيا عن حضور القوى المتعالية، ومؤسسا لعلاقة مخصوصة بين الإنسان والعالم، مبنية على الدهشة والإيمان وإنتاج المعنى.

وقد تبلور الخارق في صيغ مختلفة أكثر تحديدا داخل الأنساق الدينية، فأعيد تشكيله وتنظيمه وتأطيره ضمن خطاب اجتماعي وعقدي وديني، يضبط وظائفه ودلالاته. "فالشرعية الدينية لها القدرة على تحويل ما يصنعه الإنسان إلى معطيات متعالية على البشر (Sur-humaine) أو لا بشرية (Non-humaine) فيصبح العالم البشري كونا إلهيا"[1]. إن المعجزة باعتبارها علامة إلهية مقترنة بدعوى النبوة، ليست واقعة عجائبية منفصلة عن سياقها الديني، بل عطاء إلهيا لمن اجتباه الله من الأنبياء والرسل عليهم السلام، يُهدف من خلاله إثبات صدق الرسالة وإقامة الحجة.

غير أن الخرق في المجال الديني لا يقتصر على المعجزة، بل إن حضوره يستمر في سياقات ومسارات أخرى، تظهر وتختفي حسب حاجات الجماعة والتغيرات التاريخية؛ وهنا تعاد صياغة المعجزة ويتباين تأويلها، فتنزاح بنيتها عن وظيفتها التأسيسية الأولية إلى وظائف جديدة دون أن تنقطع عن أصلها. إن هذه الانزياحات هي التي تعيد ترتيب الخوارق في قوالب أخرى، من بينها الكرامة الصوفية التي تنسب للولي لا إلى النبي، فيتحول الخارق من آلية لإثبات النبوة إلى علامة على الولاية والقرب الإلهي.

وعليه، فالانتقال من المعجزة إلى الكرامة الصوفية، يقوم على مجموعة من الآليات كالاستبدال الذي يسمح باستمرار حضور الخارق في سياقات مختلفة، مع تغير وظائفه ودلالاته. ومن هنا فالكرامة الصوفية نتاج لتاريخ طويل من إعادة تشكيل الخارق.

1 . التأصيل المفهومي للمعجزة والكرامة الصوفية

تقتضي الضرورة المنهجية، من أجل مقاربة ظاهرة الاستبدال في الكرامة الصوفية، استجلاء الحدود الدلالية والوظيفية لكل من المعجزة بوصفها علامة نبوية، والكرامة الصوفية باعتبارها تجليا ولائيا، والوقوف عند أوجه الائتلاف والاختلاف بينهما. ومن تم فإن مقاربة هذين المفهومين، تتيح فهم الوسيلة التي تم من خلالها نقل الخارق من مجال الحجة العقدية إلى مجال التجربة الروحية، ومن الوظيفة الإثباتية البرهانية إلى الوظيفة التعبيرية الرمزية. فبين التشابه الشكلي والاختلاف المقصدي والدلالي، تشكلت مساحة الاستبدال التي اشتغلت داخلها الكرامة الصوفية معيدة صياغة المعجزة، بما يخدم منطق الولاية وسلطة الولي.

إذا ادعى أحد الناس النبوة وأقر بأنه مرسل من عند الله، لا بد أن يلقى معارضة من الآخرين مهما بلغ من درجات حسن السيرة وجميل الخلق، فلا أحد من الأنبياء صُدِّق به وشُهد باجتبائه وارتضائه نبيا أو رسولا من الوهلة الأولى، إلا إذا جاء بدليل من الله تعالى، "هذا الدليل الذي يثبت رسالة الرسول، وأنه موفد من عند الله هو المسمى (المعجزة)"[2] فهي علامة إلهية تقوم بوظيفة تصديقية، لا تحتاج التأويل ولا تتطلب الاجتهاد البشري، بل ينبغي أن تقبل في سياق الرسالة والنبوة. والمعجزة " دليل حسي أو معنوي يعجز جميع البشر الموجودين عند إرسال الرسول عن الإتيان بمثله"[3] فلا يمكن أن يكون الدليل مقدورا عليه في زمن النبي، وإلا انتفى الإعجاز، ويكون عجز البشر دليلا فارقا على أن

1 باسم المكي، *المعجزة في المتخيل الإسلامي*، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2013، ص.10.

2 حسن أيوب، *تبسيط العقائد الإسلامية*، بيروت، دار الندوة الجديدة، 1983، ص.144.

3 المرجع نفسه، ص.144.

المعجزة فعل من الله تعالى القادر على الإتيان بكل شيء، من أجل "تحدي المنكرين على وجه يعجز المنكرون عن الإتيان بمثله، والتدليل على صدق الرسول فيما يبلغه عن ربه، وإقامة الحجة وإخراس المشكك والمعارض"[4].

لقد تعددت مفاهيم المعجزة بين كونها برهانا عقليا على صدق النبي، وكونها حجة جدلية تُلزم المنكر أو المعارض العجز أمام أمر يستحيل الإتيان بمثله، وبكونها تجليا رمزيا للغيب وللحضور الإلهي في هذا الكون. فالمعجزة لا تختزل في الحدث العجيب، بل فيما ترمز إليه من قدرة إلهية متعالية؛ وقد اتفق العلماء على مجموعة من الشرائط والأوصاف التي تميز المعجزة عما سواها من الخوارق.

أولى الشرائط "أن تكون المعجزة من الله تعالى دون غيره"[5] يصدق بها رسوله، قد تكون قولا كالقرآن، أو فعلا كفلق البحر، أو تركا كعدم تأثير النار على سيدنا إبراهيم عليه السلام؛ كما يلزم "أن تكون خارقة للعادة"[6] لأنها لو لم تكن كذلك لأمكن للسحرة والمشعوذين والمخترعين أن يدعوا النبوة؛ "وأن تكون مقرونة بدعوى النبوة ومصاحبة لها"[7]، فلا تعتبر معجزة إذا تأخرت أو تقدمت بزمن عن دعوى النبوة؛ وأخيرا "أن تكون المعجزة موافقة للمطلوب"[8]، فإذا جاءت عكس المطلوب لم تحسب معجزة، كأن يقصد الإتيان بشيء فيحدث شيئا آخر رغم خرقه للعادة.

أما الكرامة فيعرفها عبد العزيز المحمد السلمان بأنها " أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم المتابعة لنبي كلف بشريعته مصحوبا بصحة الاعتقاد والعمل الصالح، علم بها أو لم يعلم ولا تدل على صدق من ظهرت على يديه ولا ولايته، ولا فضله على غيره لجواز سلبها وأن تكون استدراجا"[9] فالكرامة الصوفية خارقة يجريها الله على يد الولي، ثمرة لاستقامته وصدقه ودوام مجاهدته، لكنها ليست شرطا من شروط الولاية "فقد يكون التحقيق للولي مع عدم هذه الكرامات"[10]، لأن الكرامة عند المتصوفة ليست غاية في ذاتها، بل علامة قد تُؤتى الولي لتثبيته أو تحقيق النفع لغيره، لكن أبا بكر الرازي كان له أمر مخالف، فقد جعل الكرامة شرطا لازما و"رداء للأولياء يعرفون به، وفائدتها معرفة الولي الصادق من المدعي الكاذب."[11]

فما الفرق بين الكرامة والمعجزة؟

لقد ميز عبد الملك الجويني بين المعجزة والكرامة بشرط واحد، فهما "لا تفترقان في جواز العقل، إلا بوقوع المعجزة على حسب دعوى النبوة."[12] فالعقل بالنسبة إليه ليس معارضا لوقوع الخارق كان صادرا من نبي أو ولي، لأن القدرة الإلهية لا يعجزها شيء، لكنه يجعل الحد الفاصل بين المعجزة والكرامة متجليا في السياق والوظيفة، فالمعجزة تأتي تصديقا للنبي وحجة إلهية على صدقه، لذلك فوظيفتها الأساسية التحدي. ومن هنا فإن المعجزة "تظهر على أثر دعوى الرسالة، ولو ادعى الولي الرسالة لكفر من ساعته"[13]، وبالتالي تسقط عنه الولاية. وفي تفريقه بين المعجزة والكرامة، أورد القشيري في رسالته قول أبي بكر بن فورك الذي يعتبر "المعجزات: دلالات الصدق، ثم إن ادعى صاحبها النبوة فالمعجزات تدل على صدقه في مقالته، وإن أشار صاحبها إلى الولاية دلت المعجزة على صدقه في حلته، فتسمى "كرامة" ولا تسمى

4 حسن أيوب، *تبسيط العقائد الإسلامية*، مرجع سابق، ص.144

5 المرجع نفسه، ص.145

6 المرجع نفسه، ص.145

7 المرجع نفسه، ص.145

8 المرجع نفسه، ص.145

9 عبد العزيز المحمد السلمان، *الكواشف الجلية عن معاني الواسطية*، المملكة العربية السعودية، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، 1982، ص.717

10 عصام محفوظ، *مع الشيخ الأكبر ابن عربي*، بيروت، دار الفارابي، 2003، ص.30

11 شمس الدين الرازي، *حدائق الحدائق*، ت. سعيد عبد الفتاح، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2002، ص.255

12 الجويني، *كتاب الإرشاد*، ت. أحمد عبد الرحيم السايح، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2009، ص. 254

13 أبو المعين النسفي، *تبصرة الأدلة*، ت. محمد الأنور محمد الأنور عيسى، القاهرة، الجزيرة للنشر والتوزيع، 2011، ج.1، ص,777

"معجزة" وإن كانت من جنس المعجزات للفرق"[14]. إذن فالخرق لكي يكون معجزة، ينبغي أن يصدق دعوى تشريعية خاصة بالنبي، وإلا صارت مجرد خرق يؤكد صدق الولي الروحي. ومن الفروق – بين المعجزة والكرامة الصوفية – التي أوردها القشيري في رسالته، " أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهارها والولي يجب عليه سترها وإخفاؤها."[15]

وهنا يمكن القول إن الكرامات تكون للأولياء وللأنبياء على حد سواء، ولا تتحول هذه الكرامة إلى معجزة، إلا إذا اقترنت دعوى النبوة بها، "فشرائط المعجزات، كلها أو أكثرها، توجد في الكرامة إلا هذا الشرط الواحد"[16]. ولكون إرسال الأنبياء الهدف منه تحدي المعارضين والمشككين في وجود وقدرة الله تعالى، فإنه "يجب أن تكون لهم معجزات لأن النبي مبعوث إلى الخلق فبالناس حاجة الى معرفة صدقه؛ ولا يعرف إلا بالمعجزة، وبعكس ذلك حال الولي؛ لأنه ليس بواجب على الخلق، ولا على الولي أيضا العلم بأنه ولي."[17]

2. من شخصية النبي إلى شخصية الولي

يعد القصص الديني أحد أبرز الأشكال التعبيرية في التراث الإنساني عامة، وفي الثقافة الإسلامية خاصة، لما يحمله من قدرة على الجمع بين البعد التاريخي والبعد الديني والبعد العقدي، فهو لا يسعى فقط إلى نقل الوقائع والأخبار، بل إلى ترسيخ القيم وبناء المعنى وتوجيه الوعي من خلال الحكي، نظرا لقوة وسهولة التأثير في نفس المتلقي، فالمحكي الديني لا ينفصل عن السياق المعرفي والثقافي. ومع بزوغ فجر الإسلام ونزول الوحي، أسس القرآن الكريم لبلاغة خاصة، وقدم نموذجا فريدا للقصص الديني، أثر بشكل عميق في تطور الخطاب اللغوي والفكري، وتنوع أشكاله بين القصص القرآني، والسيرة النبوية، وحكايات الأنبياء والأولياء، حيث تباينت وظائفها بين التثبيت الإيماني، والتوجيه الأخلاقي، والتأثير الوجداني.

ومن هنا فإن "الخبر المقيد بالدقة والصواب والحق واليقين والاعتبار والتدبر والحسن، هو القص الذي أسس القرآن وجوده في الأدب العربي وأصبح هذا الفضاء الدلالي هو الذي يحدد القيمة الاعتبارية للقص"[18]. وبذلك، قد شكل القصص القرآني بما فيه من قصص الأنبياء والرسل والأولياء نموذجا استلهمت منه عدد من المحكيات ككرامات الأولياء، "فقصص القرآن التي حور البعض منها، أصبحت موضوعا لكرامات، أو نقطة مركزية في منقبة كرامية لشيخ من الشيوخ"[19]، الذين أقر الغزالي بأن "جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به"[20]. فالمتصوفة عامة، يجعلون من الاقتداء الروحي والخلقي بالرسول ﷺ أساسا للسير إلى الله، قبل الالتفات إلى الخوارق، ومن هنا لا تفهم الكرامة عند الصوفية كحدث منفصل أو غاية في حد ذاتها، بل بوصفها وجها من أوجه الاقتداء النبوي، "فكما السلوك الصوفي اقتباس من نور النبوة، فإن الكرامة تقوم على محاكاة المعجزات، ومن هنا فإن جانب المحاكاة هو البنية الأساسية في إبداع الكرامة"[21]. وهذه البنية الكرامية لم تنشأ من فراغ، بل تم تركيبها انطلاقا من بنية المعجزة وفق آلية "الاستبدال"[22]، وهذا التحوير "يغير الشخصيات الفاعلة ولكنه لا يغير وظائفها إلا وفق الحاجة"[23].

---

14 أبو القاسم القشيري، *الرسالة القشيرية*، ت.عبد الحليم محمود، القاهرة، مطابع مؤسسة دار الشعب، 1989، ص.562.

15 أبو القاسم القشيري، *الرسالة القشيرية*، مرجع سابق، ص.563.

16 المرجع نفسه، ص.563.

17 المرجع نفسه، ص.564.

18 عبد الله إبراهيم، *السردية العربية بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي*، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1992، ص.49.

19 عبد الله بن عتو، *أدب الكرامات من ميثاق الثقة إلى خطاب التماهي*، الرباط، دار الأمان، 2014، ص.134.

20 أبو حامد الغزالي، *المنقذ من الضلال*، ت. جميل صليبا وكامل عياد، سورية، مطبعة الجامعة السورية، 1962، ص.101.

21 محمد أبو الفضل بدران، *أدبيات الكرامة الصوفية*، سلسلة كتابات نقدية، القاهرة، شركة الأمل للطباعة والنشر، ع21، 2013، ص.107.

22 مصطلح "الاستبدال" ورد عند محمد أبو الفضل بدران في كتابه، "أدبيات الكرامة الصوفية"، سلسلة كتابات نقدية، القاهرة، شركة الأمل للطباعة والنشر، ع.21، 2013، من ص.89 إلى ص.103.

23 المرجع نفسه، ص.89.

إن الحديث عن آلية الاستبدال يقودنا إلى تقديم نظرة موجزة عن "وظائف الشخصيات"، التي أرسى دعائمها الشكلاني الروسي فلاديمير بروب Vladimir Propp من خلال مؤلفه "مورفولوجية الخرافة"[24]، حيث درس بنية الخرافة دراسة وافية، واعتبر أن "العناصر الثابتة، والمستمرة في الخرافة هي وظائف الشخصيات، مهما تكن هذه الشخصيات، ومهما تكن طريقة إنجازها لهذه الوظائف"[25]. فالوظائف هي العناصر الأساسية القارة فيها، وما عداها مجرد توابع تتغير وفق الشخصيات، "فقيمة الوظيفة تتجلى في "كونها تتركز على حالة (افتقار) أو فقدان أو نأي لا بد وأن ينتهي بحل يلغي حالة الافتقار الأولى."[26] وقد حدد بروب عدد الوظائف في إحدى وثلاثين وظيفة تمثل كل واحدة منها فعلا للشخصية "لا يمكن أن يعرف باستقلال عن وضعيته في مجرى المحكي. ويجب أن نضع في اعتبارنا الدلالة التي تتوفر عليها وظيفة معينة في سيرورة الحبكة"[27]، يقوم بهذه الوظائف عدد محدود من الشخصيات، جعلها فلاديمير بروب سبعا. وما ينبغي الإشارة إليه هنا فيما يخص "التَّكْثيل"[28]، هو تأكيد فلاديمير بروب أن " الخرافات لا تتوفر على كل الوظائف، بيد أن الوضعية لا تغير في شيء من تتابعها، بمعنى أن غياب بعض الوظائف لا يبدل ترتيب ما تبقى."[29]

وتدخل المعجزة والكرامة ضمن المحكيات التي يحكمها القصر وخصوصيات البناء، مما يؤدي إلى تقليص عدد الشخصيات، وبالتالي قلة الوظائف؛ ونحن في هذه الدراسة إذ نطبق منهج فلاديمير بروب في تحليل الشخصيات والوظائف على المعجزة والكرامة الصوفية، فإننا لا نقصد وضعهما في نفس المرتبة مع الحكاية الخرافية من حيث القيمة العقدية، بل نستعمل منهج بروب باعتباره أداة للتحليل من أجل الكشف عن البنية الوظيفية وآليات تشكل الخطاب، لا معيارا للحكم عن صدق الوقائع ومشروعيتها الدينية. إن ما جعلنا نتوسل بمنهج بروب في دراسة "الاستبدال" من المعجزة إلى الكرامة الصوفية هو التشابه الملاحظ بينهما وبين الحكاية الخرافية، خاصة "تطورات المبنى الحكائي"[30] وحضور العجائبي فيهما معا.

من بين الشخصيات التي نلفيها عادة في كل من المعجزة والكرامة الصوفية نجد ما يلي:

. البطل: (شخصية النبي عليه السلام في المعجزة، وشخصية الولي في الكرامة): يعتبر الشخصية الرئيسية والفاعل الأساسي في الأحداث. فالنبي شخصية مرسلة من الله تعالى، تستمد شرعيتها من الوحي الذي لا يحصل إلا باصطفاء إلهي، فيصبح النبي واسطة بين السماء والأرض، هذا المقام لا يكتسب ولا يورث ولا يطلب؛ و"المعجزة تثبت إثباتا لا شك فيه أن الذي جرت على يديه هو رسول من عند الله"[31]. أما مرتبة الولاية فهي مقام مفتوح على التعدد، يكتسب بالمجاهدة والتزكية، ويبنى بالشهادة والتداول، والكرامة لا تطلب ولا يصرح بها، بل من شروطها الإخفاء، وتتجلى وظيفتها في ترسيخ الولاية، وتأكيد القرب الإلهي. وخطاب الكرامة خطاب أزمة واحتياج، لا خطاب إقناع عقدي.

إن "الاستبدال" من المعجزة إلى الكرامة لا يعني الإلغاء، بل إعادة توظيف تيمات المعجزة في ترتيب عالم الكرامة التي تصبح آلية لتداول القداسة بدلا من المعجزة. فيتحول العجائبي من أداة لإعلان الرسالة، إلى ممارسة اجتماعية تدار عبر البركة والمدد.

. موضوع الطلب: يعتبر موضوع الطلب كل إساءة سواء كانت لفظية كالسب والشتم أو اعتداء على الممتلكات أو الشك في القدرة أو الإنكار، وبالتالي فالمنكر قد يكون مشككا أو عالما أو حتى مريدا أو محتاجا، لكنه في الكرامة الصوفية يتحرك داخل المجال والنسق الإسلامي نفسه، فهو إنكار جزئي لا عقدي، ينتهي بصاحبه في نهاية المطاف، إلى معاقبة من قبل الولي أو توبة أو اعتراف بالولاية. أما بالنسبة للمعجزة،

---

24 فلاديمير بروب، *مورفولوجية الخرافة*، ت. إبراهيم الخطيب، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ط.1، 1986

25 المرجع نفسه، ص.35.

26 ناهضة ستار، *بنية السرد في القصص الصوفي المكونات الوظائف التقنيات*، دمشق، منشورات اتحاد كتاب العرب، 2003، ص.155.

27 فلاديمير بروب، *مورفولوجية الخرافة*، مرجع سابق، ص.34 و35

28 المرجع نفسه، ص.36.

29 المرجع نفسه، ص.36.

30 المرجع نفسه، ص.10.

31 حسن أيوب، *تبسيط العقائد الإسلامية*، مرجع سابق، ص. 147

فإن الإنكار موجه للنبوة، لذلك فالمنكر قد يكون كافرا أو مشركا أو معاندا، ذو معارضة عقدية مبدئية قبل المعجزة، وغالبا بعدها أيضا، تنتهي في الغالب بالهلاك أو العقاب الدنيوي والأخروي.

. المرسِل: أو الحاجة التي تسمح للبطل بالظهور، فقد يكون البطل هو نفسه المحتاج. والمحتاج محرك أساس في الكرامة الصوفية، لكنه لا يخلق الحدث بل يستدعيه. في الكرامة الصوفية قد يكون المحتاج فقيرا أو مريضا يطلب، أو مسافرا يتوسل أو عالما أو حاكما يستفسر، فتنقسم بذلك الحاجة في الكرامة، إلى مادية كالقوت أو الشفاء أو النجاة...، أو معنوية كالعلم أوالطمأنينة أوالبركة... والحاجة من الولي غالبا ما تكون فردية وشخصية تحتاج إلى دعاء أو طلب، لكنها في النهاية تؤدي إلى الاعتراف بأهلية الولي. أما في المعجزة فالمحتاج إما فرد من عامة الناس أو جماعة مستضعفة تحتاج للشفاء أو الطعام أو النجاة، لكن المعجزة تنجز رغم المحتاج لا بسببه كما في الكرامة الصوفية، وغالبا ما تأتي المعجزة دون طلب، ويكون الهدف الأساسي منها هو إثبات صلة النبي بالحق وتأييده تعالى لرسالته.

في سياق المعجزة يظهر المحتاج كعنصر تابع للرسالة، دون أن يكون له دور في إنتاج الحدث العجائبي، وتُستثمر تلبية حاجته كتجل للقدرة الإلهية، وبرهان على صدق النبوة، فالمعجزة تأتي استجابة لمقتضيات الرسالة، أكثر من كونها تحقيقا لطلب المحتاج. أما في سياق الكرامة الصوفية، فيحتل المحتاج موقع المركز، إذ تبنى الكرامة على حاجته، فينتقل العجائبي من دور إثبات الرسالة إلى تدبير الحياة اليومية للمحتاجين.

. المعين: يتخذ المعين في سائر المحكيات وجوها كثيرة: "1) حيوانات (فرس أو نسر إلخ) _ 2) أشياء ينبعث منها مساعدون سحريون (القداحة والفرس، الخاتم والشبان)، 3) أشياء ذات خصائص سحرية كالهراوة، والسيف، والكمان، والكرة، وغيرها كثير، 4) خصائص تستلم مباشرة، كالقوة مثلا أو القدرة على التحول إلى حيوان إلخ."[32] ويتراوح المعين في الكرامة الصوفية بين ولي غائب، وشيخ متوف، وحيوان خارق، ورؤيا مباركة...، تُستدعى بالنداء والطلب، تهدف إلى حماية الولي أو المريد أو الطالب، أو حل أزمات والتغلب على مشاكل، و"قد يأتي العون من الله مباشرة، بينما تتخذ معظم الروايات وسائط أخرى يتحقق من خلالها المدد."[33] أما المدد في المعجزة فغالبا ما يكون كائنا غير بشري مسخرا من الله سبحانه وتعالى (ملك، ريح، عصا، بحر...) نازلا من الأعلى، ولا يخضع لطلب مباشر، وظيفته تثبيت النبي في أداء الرسالة، ودعم إلهي في مواجهة التكذيب والاضطهاد والتعنيف، فالمساعد في المعجزة يعمل لصالح الرسالة لا الأفراد.

إن المساعد في المعجزة هو تجل للقدرة الإلهية أو بصيغة أخرى، حامل للقدرة الإلهية، يعمل في الخفاء وبأمر من الله تعالى، لكن حضوره يبقى هامشيا. أما في الكرامة الصوفية فهو عنصر لازم، يربط بين الأولياء والعالم، فيصبح العجائبي ممارسة يومية قابلة للتداول.

3. نموذج لآلية "الاستبدال" في السرد الصوفي

إن التحليل الأولي لمختلف المقارنات السابقة بين شخصية النبي وشخصية الولي، ومختلف الشخصيات في المعجزة والكرامة الصوفية، يبين أن "الكرامة تقوم على محاكاة بنية المعجزات،"[34] تغير الشخصيات، لكنها تُبقي على الوظائف ثابتة، بعبارة أوضح، يستبدل النبي في المعجزة بالولي في الكرامة، بينما تبقى الوظائف نفسها في كليهما، لذلك يمكن القول، إن الكرامة لا تهدم المعجزة بل تعيد بناءها وتشغيلها ضمن سياق جديد، هو السياق الصوفي.

ولمزيد من التوضيح، نقدم نموذجا لآلية "الاستبدال" من المعجزة إلى الكرامة الصوفية، اعتمادا على نموذج بروب:

يقول الله تعالى في كتابه الحكيم، في معرض حديثه تعالى عن معجزة النبي موسى عليه السلام: «وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، قد علم كل أناس مشربهم، كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الارض مفسدين»[35] ، المعجزة

32 فلاديمير بروب، *مورفولوجية الخرافة*، مرجع سابق، ص.97

33 أبو الفضل بدران، *أدبيات الكرامة الصوفية*، مرجع سابق، ص.109

34 أبو الفضل بدران، *أدبيات الكرامة الصوفية*، مرجع سابق، ص.89

35 *سورة البقرة*، الآية.60

هنا هي إنباع الماء من الحجر لبني إسرائيل، حيث "يضرب موسى عليه السلام حجرا كانوا يحملونه معهم بالعصا، فتفجر منه اثنتا عشرة عينا، لكل سبط عين منه تنبجس، ثم تتفجر ماء زلالا (فيشربون) ويسقون دوابهم، ويدخرون كفايتهم."[36]

ويورد يوسف النبهاني في مدونته "جامع كرامات الأولياء" كرامة مشابهة للشيخ عبد الرحمن بن محمد السقاف مول الدويلية، يقول فيها: "وكان مسافرا ومعه جماعة، فعطشوا في محل ليس فيه ماء فتعبوا، فقال لهم الشيخ ارفعوا هذا الحجر فإن تحته ماء، فرفعوه فوجدوا ماء فراتا."[37]

تعتبر الوظائف أحداثا سردية ثابتة تقوم بها الشخصيات التي تتغير حسب الشكل الحكائي. وتتحدد الوظائف المشتركة الواردة في النص القرآني (نص المعجزة) ونص الكرامة الصوفية فيما يلي:

1 . النقص أو الحاجة (الوظيفة الثامنة): "شيئ ما ينقص"[38]، وتتجلى في وجود حاجة تهدد الجماعة، في المعجزة العطش يتهدد بني إسرائيل؛ وفي الكرامة عطش المسافرين المرافقين للولي. إن الوظيفة في كليهما ثابتة لا تتغير: عدم وجود الماء.

2 . الوساطة أو الإبلاغ (الوظيفة التاسعة): "تعمل هذه الوظيفة على إدخال البطل إلى مسرح الأحداث"[39]، هنا يظهر طلب الجماعة المرافقة للشيخ السقاف للماء؛ وفي المعجزة طلب بني إسرائيل من سيدنا موسى عليه السلام أن يستسقي لهم، في هذه الوظيفة يصبح النقص معلنا.

3 . وظيفة متعلقة بالبطولة أو المهمة (الوظيفة العاشرة): حيث إن "البطل الباحث يقبل السعي أو يقرره،"[40] ليخضع للامتحان، فالبطل في المعجزة هو موسى عليه السلام؛ وفي الكرامة الشيخ السقاف، كلاهما يستجيب للطلب، الذي يأتي في الآية الكريمة بالعبارة "إذ استسقى"، أما في الكرامة فالاستجابة كانت ضمنية غير مصرح بها.

4 . وظيفة الواهب (الوظيفة الثانية عشرة): ويتعلق الأمر هنا بالقوة المانحة إمكانية الحل، في المعجزة المانح مصرح به، وهو الله سبحانه وتعالى؛ وفي الكرامة المانح غائب سرديا حاضر ضمنيا وهو الله تعالى. وهنا يتهيأ البطل "لتلقي أداة أو مساعد سحري"[41]

5 . "توضع الأداة السحرية تحت تصرف البطل"[42] (الوظيفة الرابعة عشرة): حيث يحصل البطل على وسيط سحري، وتفتح باب إمكانية الفعل العجائبي، في المعجزة يتحقق من خلال تفعيل العصا وضرب الحجر دون تسلم شيء جديد؛ وفي الكرامة بإشارة من قبل الولي إلى رفع الحجر.

6 . تعويض النقص (الوظيفة التاسعة عشرة): وتتجلى في تحقق الفعل العجائبي، حيث "الحصول على موضوع البحث نتيجة مباشرة للأفعال السابقة"[43] ففي المعجزة تنفجر اثنتا عشرة عينا؛ وفي الكرامة وجود الماء الفرات تحت الحجر.

7 . "إنجاز المهمة"[44] (الوظيفة السادسة والعشرون): والمتمثلة في ارتواء بني إسرائيل، وشرب القوم المرافق للولي، وبالتالي عودة التوازن بزوال الحاجة.

---

36 أبو الفداء إسماعيل بن كثير، *قصص الأنبياء*، ت. مصطفى عبد الواحد، مكة المكرمة، مكتبة الطالب الجامعية، 1988م، ص.431

37 يوسف بن إسماعيل النبهاني، *جامع كرامات الأولياء*، ت. إبراهيم عطوة عوض، الهند، مركز أهلينة بركات رضا، 2001، ص.152

38 فلاديمير بروب، *مورفولوجة الخرافة*، مرجع سابق، ص. 46

39 المرجع نفسه، ص.47

40 المرجع نفسه، ص.49

41 فلاديمير بروب، *مورفولوجة الخرافة*، مرجع سابق، ص.49

42 المرجع نفسه، ص.52

43 المرجع نفسه، ص.61

44 المرجع نفسه، ص.61

وفيما يلي جدول مقابلة بين وظائف بروب في كل من المعجزة والكرامة الصوفية:

وظائف بروب (مجال الفعل)	معجزة موسى عليه السلام	كرامة الشيخ السقاف
النقص أو الحاجة	عطش بني إسرائيل	عطش رفقة السقاف
الوساطة أو الإبلاغ	ظهور طلب الماء	استغاثة الجماعة
قبول السعي	النبي عليه السلام يستسقي لقومه	الولي يتقدم لإيجاد الحل
الواهب	الله تعالى بشكل مباشر	الله تعالى بشكل مستتر
الأداة السحرية أو الوسيط	العصا	الكلام أو الإشارة للمكان
تعويض النقص	تفجير الماء	ظهور الماء
إنجاز المهمة	ارتواء بنو إسرائيل	ارتواء الجماعة

نلاحظ أن الوظائف في كل من المعجزة والكرامة متطابقة ترتيبا ووظيفة، فالهيكل الوظائفي الأساسي ثابت، "وهذا التداعي والتناص مقصود في حبكة المبدع للإعلاء من الشيخ ومن الكرامات."[45] إن ثبات الهيكل الوظائفي بين المعجزة والكرامة الصوفية، ربما ساهم في" تواتر الكرامات وإمكانية استبدال أبطالها وشهودها بينما تحتفظ بوظائفها المعتادة، وربما أدى ذلك إلى سهولة إبداع كرامة ما من قبل العامة"[46]. ولعل تشابه مجموعة من الكرامات مع عدد من المعجزات، رغم اختلاف الزمان والمكان، يرفع من احتمالية صحة هذه الرؤية، بل أكثر من ذلك نجد في مصنفات الكرامات الصوفية، كرامات لعدد من الأولياء وردت بنفس الصيغة وبنفس البنية مع اختلافات بسيطة.

4. على سبيل الختم

يمكن من خلال هذه الدراسة أن نخلص إلى النتائج التالية:

. كل من المعجزة والكرامة أمر خارق للعادة، يأتي على يد عبد فائق الصلاح، إلا أن المعجزة مقرونة بدعوى النبوة، أما الكرامة فصفتها الكتم.

. العناصر الثابتة الدائمة في أي حكاية هي وظائف الشخصيات، رغم التباين الحاصل بين الحوامل أو الشخصيات والطريقة التي تؤدى بها الوظائف. فالنبي يستبدل بالولي، والوحي بالكشف. وهذا يعني أن الكرامة الصوفية تحافظ على الهيكل الحكائي للمعجزة، وتوظفها ضمن السياق الصوفي.

. حدد بروب إحدى وثلاثين وظيفة في الخرافة، تقوم بها سبع شخصيات، لكننا قد نلفي وظائف وتختفي أخرى حسب مورفولوجية المحكي. وذلك دون أن يتغير تتابع الوظائف.

45 أبو الفضل بدران، *أدبيات الكرامة الصوفية*، مرجع سابق، ص.101

46 المرجع نفسه، ص.93

. إن ترتيب الوظائف لا يتغير، فرغم غياب بعضها فإن تتالي الوظائف هو نفسه، مع تغيير مرجعية السلطة من النبوة إلى الولاية، أو بعبارة أخرى الكرامة هي إعادة ترميز للمعجزة.

. هناك تشابه كبير . إن لم نقل تطابق . بين المعجزة والكرامة من جهة، والخرافة من جهة أخرى، فيما يتعلق بالوظائف الواردة فيها.

. الاستبدال تحول في وظيفة الخارق داخل الثقافة الإسلامية، ينتقل من العجائبي البرهاني (إثبات الرسالة) إلى العجائبي الرعائي (النفع وقضاء الحاجة)

المراجع والمصادر:

- . القرآن الكريم
- إبراهيم عبد الله، السردية العربية بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1992
- . أيوب حسن، تبسيط العقائد الإسلامية، بيروت، دار الندوة الجديدة، 1983
- . بدران محمد أبو الفضل، أدبيات الكرامة الصوفية، سلسلة كتابات نقدية، القاهرة، شركة الأمل للطباعة والنشر، ع21، 2013
- . فلاديمير بروب، مورفولوجية الخرافة، ت. إبراهيم الخطيب، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1986
- . الجويني عبد الملك، كتاب الإرشاد، ت. أحمد عبد الرحيم السايح، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2009
- . الرازي شمس الدين، حدائق الحدائق، ت. سعيد عبد الفتاح، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية
- . ستار ناهضة، بنية السرد في القصص الصوفي المكونات الوظائف التقنيات، دمشق، منشورات اتحاد كتاب العرب، 2003
- . السلمان عبد العزيز المحمد، الكواشف الجلية عن معاني الواسطية، المملكة العربية السعودية، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، 1982
- . ابن عتو عبد الله، أدب الكرامات من ميثاق الثقة إلى خطاب التماهي، الرباط، دار الأمان، 2014
- . الغزالي أبو حامد، المنقذ من الضلال، ت. جميل صليبا وكامل عياد، سورية، مطبعة الجامعة السورية، 1962
- . القشيري أبو القاسم، الرسالة القشيرية، ت.عبد الحليم محمود، القاهرة، مطابع مؤسسة دار الشعب، 1989
- . ابن كثير أبو الفداء إسماعيل، قصص الأنبياء، ت. مصطفى عبد الواحد، مكة المكرمة، مكتبة الطالب الجامعية، 1988
- . محفوظ عصام، مع الشيخ الأكبر ابن عربي، بيروت، دار الفارابي، 2003
- . المكي باسم، المعجزة في المتخيل الإسلامي، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2013
- . النبهاني يوسف بن إسماعيل، جامع كرامات الأولياء، ت. إبراهيم عطوة عوض، الهند، مركز أهلينة بركات رضا، 2001
- . النسفي أبو المعين، تبصرة الأدلة، ت. محمد الأنور محمد الأنور عيسى، القاهرة، الجزيرة للنشر والتوزيع، 2011، ج.1